٦ – بين القاضى الجرجانى وعبد القاهر

كتبت هذه الدراسة بدعوة كريمة من المستشار الثقافى الإيرانى بالقاهرة فى يناير ١٩٧٩ لنشرها فى العدد الخاص بعبد القاهر من مجلة المنتدى الإيرانية لكن المجلة توقفت عن الصدور قبل النشر .

* * *

العلاقة بين القاضى الجرجانى وعبد القاهر الجرجانى لا تقتصر على ما يكون بين المؤلف السابق والمؤلف اللاحق فى الموضوع الواحد ، بل إنها تتجاوز ذلك إلى كونها علاقة بين مواطن ومواطن ، وربما بين قريب وقريب ، ولقد نمت حتى صارت علاقة بين أستاذ وتلميذ .

وتلمذة عبد القاهر للقاضى أو أستاذية القاضى لعبد القاهر ، هذه القضية بشقيها المتلازمين كوجهى العملة تحتاج إلى دراسة .

فقد ذكر ياقوت أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى صاحب [أسرار البلاغة]و [دلائل الإعجاز].

قد قرأ على القاضى الجرجانى »واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره فى كتبه تبخبخ به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه[1].

(١) معجم الأدباء ج ١٤ ص ١٤ .

وهذا الذى ذكره ياقوت ، يعنى أنهما التقيا ، وإلا فكيف قرأ عبد القاهر على القاضى ؟ !! إن عبارة [قرأ على القاضى]لا تحتمل أى نوع من التجوز .

وأستاذية القاضى لعبد القاهر بمعنى الأخذ الشفهى المباشر أمر لم أجد من يقول به من المؤرخين سوى ياقوت ، وهى دعوى بلا دليل ، بل إن الأدلة تنقضها .

ومن هذه الأدلة طول المسافة الزمنية بينهما ، فالقاضى مات سنة٣٩٢ ، وعبد القاهر مات سنة ٤٧١ أو سنة ٤٧٤[1] والبعد الزمنى بين الوفاتين بعد كبير وواسع ؛ فهو بين أن يكون ٧٩ أو ٨٢ سنة يحتاج عبد القاهر معه إلى ما يقرب من خمس عشرة سنة ليكون قادرًا على الأخذ والتلقى .

هذا الفاصل الزمنى الذى يقرب من مائة سنة نحن معه بين أمرين :

إما أن نتأخر بوفاة القاضى إلى ما بعد سنة ٣٩٢ ، وإما أن نتقدم بوفاة عبد القاهر عن سنة ٤٧١ وكذلك بيوم مولده حتى تصح له سن تسمح بالتلقى فى أخريات حياة القاضى فبدون هذه العملية لا تصح رواية ياقوت .

لكن أيمكن ذلك ؟.

لا يمكن طبعًا إذ ليس فى مقدور أحد أن يقدم ميلاد من ولد أو يؤخر موت من مات .

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ج ٢ ص ١٨٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

ودليل آخر يقدمه ياقوت نفسه حين يذكر أن عبد القاهر الجرجانى ليس له أستاذ سوى أبى الحسين محمد بن الحسين ابن أخت أبى على الفارسى ، وتابعه على ذلك السيوطى فى بغية الوعاة[1].

وقد قرأت ترجمة عبد القاهر فى كثير من المصادر فلم أجد أحدًا قال : إنه قرأ على القاضى .

ومن الكتب التى رجعت اليها فى ذلك :

فوات الوفيات جـ ١ ص ٦١٢ ، وإنباه الرواة على أنباه النحاة جـ ٢ ص ١٨٨ ، وسير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٢٤٢ ، وكنوز الأجداد لمحمد كرد على ص ٢٦٠ والأدب العربى لمحمود مصطفى جـ ٢ ص ١٩٠ ، والوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ٢٣٠ ، ومن الوجهة النفسية لمحمد خلف الله ص ٧٢ ومقدمة أسرار البلاغة لمحمد رشيد رضا .

وإذن فلم يتم الأخذ مشافهة .

كل ما هنالك ان الجرجانى الصغير عبد القاهر أعجب بالجرجانى الكبير القاضى على بن عبد العزيز فعكف على كتبه ومكتبته وربما كانت له به قرابة ساعدته على ذلك فتخرج عليه بعد مماته وليس فى حياته ، وحق له حينئذ أن يتبخبخ به وأن يشير إليه وإلى آرائه مرات كثيرة فى كتابيه ، ورأى ذلك ياقوت فقال بتلقيه عليه وأخذه الشفهى عنه .

* * *

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ٣ وبغية الوعاة ص ٣١٠ طبعة سنة ١٩٦٤ ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

والآن مع الأفكار المشتركة والآراء المتشابهة فى [الوساطة بين المتنبى وخصومه] للقاضى ، وفى [أسرار البلاغة] و [دلائل الإعجاز] لعبد القاهر .

ولأننا مع كتاب يواجه كتابين فإننا سنمشى المشوار مرتين :

مرة بين الوساطة وأسرار البلاغة .

ومرة بين الوساطة ودلائل الإعجاز.

أولاً – بين الوساطة وأسرار البلاغة

(١)

ما نكاد نفتح [أسرار البلاغة] حتى نجد عبد القاهر يختار للغة الأدب اللفظ الوسط : « وأما رجوح الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعدو نمطًا واحدًا وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيًا غريبًا أو عاميًا سخيفًا »[1].

والمعقول أن نقول : إن عبد القاهر قد تأثر فى هذا بأستاذه ومواطنه القاضى الجرجانى .

فالقاضى الجرجانى يؤمن بالتطور اللغوى ، ونراه – لذلك – يثنى على المحدثين بتجاوبهم مع بيئتهم وتمثلهم لحضارتهم ؛ ذلك أن العرب كانت تخص الشعر بفضل تهذيب وتفرده بزيادة عناية ، وقد كانت

---

(١) أسرار البلاغى ص ٣ .

طبيعتها لبداوتها خشنة فمن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولهذا جاء شعرهم فخمًا جزلًا وقويًا متينًا .

لكن الإسلام قد انتشر واتسعت الممالك وكثرت المدن وتحضر البدو فاختاروا من الكلام ألينه وأسهله وترققوا في شعرهم وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين فيظن ضعفًا ، فإذا أفردت عاد ذلك اللين صفاء ورونقًا . والقاضي الجرجاني يحتاط لنفسه وهو يشجع المحدثين على السهولة واللين فيقول :

« ومتى سمعتني أختار للمحدث هذا الاختيار وأبعثه على التطبع وأحب له التسهيل فلا تظن أني أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث ، بل أريد النمط الأوسط ما ارتفع عن الساقط السوقي وانحط عن البدوي الوحشي »[1].

من هذا النبع الثر ومن هذه الدراسة المعمقة امتاح عبد القاهر رأيه في لغة الأدب .

لكن ليس ما يمنع من أن يكون قد استفاد من النقاد الذين سبقوا القاضي كبشر والجاحظ وقدامة والآمدي ، وللجاحظ عبارة صريحة في ذلك قال : « كما لا ينبغي أن يكون اللفظ ساقطًا سوقيًا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا »[2].

---

(١) الوساطة ص ٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٩ .

ويظهر أن لغة الأدب فى ذلك الوقت وقبله وبعده كانت تتجاذبها نزعتان متضادتان إحداهما بدوية مسرفة أى وحشية ، والأخرى حضرية متسامحة أى سوقية ، وهما طرفان مذمومان ؛ ولهذا رأينا كثيرًا من النقاد والمشتغلين بالأدب يوجهون اهتمامهم إلى هذه الناحية وينصون على أن خير الأمور أوسطها ، وأن أحسن شىء للأديب إرساله نفسه على سجيتها لتقول ما يمدها به الطبع .

قال إبراهيم بن المهدى لعبد الله بن صاعد كاتبه : « إياك وتتبع الوحشى من الكلام طمعًا فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العىُّ الأكبر ، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل[1].

(٢)

القاضى الجرجانى ناقد تجريبى يدعو إلى تطبيق العلم على العمل :

« ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه »[2].

« وأنت تجد ذلك ظاهرًا فى أهل عصرك وأبناء زمانك »[3].

« وانظر هل تجد معنى مبتذلاً ولفظًا مشتهرًا ؟ وهل ترى صنعة وإبداعًا أو تدقيقًا وإغرابًا »[4].

---

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٥٣.
(٢) الوساطة ص ٤ .
(٣) الوساطة ص ١٧ .
(٤) الوساطة ص ٢٦ .

« ومتى شئت أن ترى ما وصفته عيانًا وتعلمه يقينًا فاعترض أول عامى غفل تستقبله وأعجمى جلف تلقاه ثم سله .. »[1].

وها هوذا عبد القاهر يسلك فى (أسرار البلاغة) نفس المسلك :

« لو كان رجل على طرف نهر وقت مخاطبة صاحبه وإخباره بأنه لا يحصل من سعيه عى شيء فأدخل يده فى الماء وقال :

« انظر هل حصل فى كفى من الماء شيء ؟ فكذلك أنت فى أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل ، ولو أن رجلًا أراد أن يضرب لك مثلًا فى تنافى شيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ ، وأشار إلى ماء ونار حاضرين ، وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول فقط »[2].

(٣)

وغير بعيد عما قلناه تحت رقم (٢) ما سنقوله تحت رقم (٣) ، وما سنقوله يمكن عنونته بنظرية التأثرية ، وهى نظرية تجد سندها فى الدراسات النفسية الحديثة ، فمن أخص صفات الشعور الذى يثيره العمل الفنى أنه يوحد بين متلقى الأدب ومبدعه إلى درجة يشعر معها المتلقى كأنه صاحب العمل الفنى وأن ما عبر عنه هو ما كانت نفسه تهفو إلى التعبير عنه .

---

(١) الوساطة ص ١٨٠ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٠٦ ، ١٠٧.

وفى نقدنا العربى شىء من هذا ، بل فى نقدنا العربى كثير من هذا ، يقول قدامة : « إن المحسن من الشعراء فيه [النسيب]هو الذى يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذى وجد حاضر أو داثر أنه يجد أو قد وجد مثله »[1].

هذا النص لقدامة معناه أن من مقاييس جودة الأدب قوة تأثيره فى نفس متذوقه ، وكثيرًا ما وضع القاضى الجرجانى هذا المقياس موضع التطبيق العملى فى الوساطة ، فهو يذكر شيئًا من شعر البحترى ويقول : « تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ويستخفك من الطرب إذا سمعته ، وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك ومصورة تلقاء ناظرك »[2].

فقدامة والقاضى الجرجانى متفقان على أن الأدب يجب أن يكون مرآة لوجدان مستقبله كما هو فى الأصل مرآة لوجدان مرسله .

وقد استغل عبد القاهر بعدهما هذا الكشف وجعله الأساس الذى بنى عليه كتابه (أسرار البلاغة) ، فهو يقيس كل الصور البلاغية فيه بمقدار تأثيرها فى النفس ، وذلك ما يسميه المحدثون (Introspection) أى الفحص الباطنى وهو أن تقرأ الشىء وتراقب نفسك عند قراءته وبعدها تتأمل ما يعروك من الهزة والارتياح والطرب والاستحسان وتحاول أن تفكر فى مصادر هذا الإحساس ، وبهذه الطريقة فى القراءة

---

(١) نقد الشعر ص ١٢٧ .

(٢) الوساطة ص ٢٦ .

تختلف القصيدة من قارىء لآخر وتصير ذات وجود متعدد يكاد لا يأتى عليه الحصر[1].

ولا يعوزنا الدليل على تأثر عبد القاهر بالقاضى فى هذا الشأن : فنحن نجده فى أى فصل قرأناه بل فى أية صفحة قلبناها من أسرار البلاغة ، واسمع قوله :

« واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى ضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفًا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا »[2]. وانه ليورد قول البحترى :

دان على أيدى العفاة وشاسع ... عن كل نـد فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه ... للعصبة السـارين جـد قريب

ثم يعوّل فى بيان قيمة التشبيه فيه على ما كان القاضى الجرجانى يعول عليه فى تذوق النصوص الأدبية وهو ما دعوناه (نظرية التأثرية)[3].

كما أنه يقارن بين إخفاء التشبيه بالاستعارة فى قول الشاعر :

لاتعجبوا من بلى غلالته ... قد زرَّ أزراره على القمر

وإظهاره فيما لو قلنا : لا تعجبوا من بلى غلالته فقد زر أزراره على من حسنه حسن القمر ، ثم يسأل كما كان القاضى الجرجانى يسأل :

---

(١) فن الشعر لإحسان عباس ص ١٨٢ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٩٢ .
(٣) أسرار البلاغة ص ٩٨ .

هل ترى إلا كلامًا فاترًا ومعنى نازلًا ، واخبر نفسك هل تجد ما كنت تجده من الأريحية ، وانظر فى أعين السامعين هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ودلالة على الإعجاب ؟[1].

(٤)

تعيش الأفكار الشعرية فى منطقة الظل من القصيدة أو المقطوعة أو البيت ، أما العواطف والانفعالات فإنها تتوهج وتلمع كلما انتفخت أوداج الشاعر بها وسارت شاعريته فى الاتجاه المشبع لها ، وهذا أمر طبيعى ؛ فأهم ما يمتاز به الشعر عن النثر أن يتجه إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا إلى الإدراك والتفكير ، لأن غرضه الأساسى هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها من الأذهان ، ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإبهام ويسيطر على أساليبه الخيال والكنايات واستخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له .

وأرانى بهذا الذى قلته قد فصلت ما أجمله القاضى الجرجانى بقوله :

« وليس فى الأرض بيت من أبيات المعانى لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنفة وتشغل باستخراجها الأفكار البارعة »[2].

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦٥.

(٢) الوساطة ص ٤٣١ .

والجرجانى مصيب فيما قال ؛ فالحياء شرط أساسى فى الأدب ، ولابد فى الشعر خاصة من الضباب كى تكون له قدرة على الإيحاء ، فمن مقاييس الجودة أن يزداد ما يضيفه القارىء إلى ما يقرأ ، وهو لن يضيف إلا إذا ترك له الشاعر ما يضيفه .

ذلك كان تفكير القاضى فى هذه الناحية من نواحى الإبداع الفنى .

وقد تبعه تلميذه عبد القاهر بدعوته إلى أن تكون معانى الأدب فى منزلة وسط بين الوضوح والغموض فلا هى سافرة صراحة ولا هى مطبقة الخفاء ، وكل ما زاده على القاضى أن فلسف رأيه وعلله بهذا الكلام :

« ومن المركوز فى الطباع أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالميزة أولى فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضنّ وأشغف »[1].

على أن ثمة فرقًا بين هذا الذى يدعو إليه الجرجانيان وبين التعقيد الذى ذماه : ذمه القاضى فى الوساطة وذمه عبد القاهر فى الأسرار ، وقد اتفقا على التمثيل له ببيت المتنبى :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل[2]

---

(١) أسرار البلاغة ص ١١٨ .
(٢) الوساطة ص ٨٦ وأسرار البلاغة ص ١٢٠.

(٥)

كثيرًا ما يقف عبد القاهر على مواقع أقدام أستاذه ، وقد يقف على بعد منه لكنه دائمًا فى حضرته وتحت مظلته ، ونوضح ذلك بالآتى :

أورد القاضى قول ابن المعتز :

بيـــاض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

وجعل نقده مزيجًا من المؤاخذه له والثناء عليه .

وجاء عبد القاهر فأورد نفس البيت فى أسرار البلاغة ، واقتصر فى نقده على مدحه ثم قال : « وقال القاضى أبو الحسن رحمه الله : — لو اتفق له أن يقول : (احمرار فى جوانبه بياض) لكان قد استوفى الحسن ، وذلك لأن حد الخجل هكذا : يحدق البياض فيه بالحمرة لا الحمرة بالبياض، ويعلق عبد القاهر قائلا : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة فشبه على طريق العكس فقال : هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك[1] .

ونحن نلاحظ أن عبد القاهر يعتذر عن الشاعر ولا يسلمه للناقد .

ومع هذا فهو حريص على عدم مخالفته ، يقول : قال المتنبى :

دون التعانق ناحلين كشكلتى نصب أدقهما وضم الشاكل

وهو غير قول الآخر :

إنى رأيتك فى نومى تعانقنى كما تعانق لام الكاتب الألفا

---

(١) الوساطة من ١٨٣ وأسرار البلاغة ص ١٧٢ .

فإن هذا قد أدى إليك شكلًا مخصوصًا لا يتصور فى كل واحد من المذكورين على الانفراد ، وصورة لا تكون مع التفريق ، وأما المتنبى فأراك الشيئين فى مكان واحد وشدد فى الفرق بينهما ، وذلك أنه لم يعرض لهيئة العناق ومفارقتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة فى فرط النحول ، واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقًا .

وذهب القاضى فى بيت المتنبى إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قول الآخر : كما تعانق لام الكاتب الألفا .

وقال : ولئن أخذه كما يقولون فليس عليه معتب ، لأن التعب فى نقله ليس بأقل من التعب فى ابتدائه .

ونحن نستشعر الولاء فى قول عبد القاهر : «وهذا التفضيل والتفصيل من قول القاضى ليس قادحًا فى غرضى ، لأنى أردت أن أريك مثالًا فى وضع التشبيه على الجمع والتفريق وأجعل البيتين معيارًا فيما أردت ، ولئن كان المتنبى قد زاد على الأول من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ولكن على وجهة أخرى وهى الإغراق فى الوصف بالنحول وجمع ذلك للخلين معًا ثم إصابة مثال له ونظير من الخط ، فاعرف ذلك ولا تظن أن قصدى المفاضلة بين البيتين من حيث القول بين السابق والمسبوق والأخذ والسرقة فتحسب أنى خالفت القاضى فيما حكم به[1].

(١) أسرار البلاغة ص ١٧٦ ، ١٧٧ . والوساطة ص ٢٣٥ .

(٦)

احتمال تأثر الشاعر بأفكار شاعر آخر وأحاسيسه وصوره احتمال قائم ووارد ، وقد ننخدع نحن النقاد فنظن أن ذلك من ابتكاره بينما هو قد استمده عبر المسارب الخفية فى النفس الإنسانية وأدخله فى حوزته من الأبواب الخلفية للعقل الواعى وهى الأبواب الموصلة إلى ما يسمى فى علم النفس الحديث بالعقل الباطن .

ولهذا تحرز العقلاء من نقاد الأدب عربًا وأعاجم عن القول باختراع المعانى، كما تحرزوا بالمقدار نفسه وربما أكثر عن القول بسرقتها . وقد كان القاضى الجرجانى أحد هؤلاء العقلاء ، ها هو ذا يقول فى معرض التعليق على بعض الشعر الجيد لأبى الطيب : « وهذه أفراد أبيات منها أمثال سائرة ومنها معان مستوفاة ولعل أكثرها من اللمع المختارة مختارة المعانى ومفترعة المذاهب ، لكن ليس لك أن تلزمنى تمييز ذلك وإفراده والتنبيه عليه بأعيانه كما فعله كثير ممن استهدف للألسن فقال : معنى مفرد وبيت بديع ولم يسبق فلان إلى كذا وانفرد فلان بكذا لأنى لم أدع الإحاطة بشعر الأوائل والأواخر بل لم أزعم أنى نصفته سماعًا وقراءة فدع الحفظ والرواية ، ولعل المعنى الذى أسمه بهذه السمة والبيت الذى أضيفه إلى هذه الجملة فى صدر ديوان لم أتصفحه أو تصفحته ولم أعثر بذلك السطر منه أو عسانى أكون رويته ثم نسيته ، أو حفظته لكن أغفلت وجه الأخذ منه وطريقة الاحتذاء به [1].

(١) الوساطة ص ١٥٦ .

وواضح أن القاضى يعتذر هنا عن الحكم بالابتكار .

لكنه من ناحية أخرى لا يشكك فى ذاتية الأديب ولا ينفى ما عساه أن يكون له من أصالة ، ولهذا قال بتوارد الخواطر ، وحظر على نفسه وعلى غيره بت الحكم بالسرقة إلا إذا وجد فى شعر الشاعر معانى كثيرة مأخوذة من غيره ، فإنه والحالة هذه يبتها وحتى فى هذه الحالة نراه يفسح صدره للسارق ويسلم له بكل ما فى شعره من المعانى لكن بعد أن يحكم بأن فيها مأخوذًا لا يثبته بعينه ومسروقًا لا يميزه من غيره وإنما أمره أن يقول : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا فيغتنم فضيلة الصدق ويسلم من اقتحام التهور[1].

والقاضى محق فى هذا السلوك المزدوج أو شبه المتناقض ، لأنه وإن كان العمود الفقرى لأية دراسة أدبية إنما هو إظهار ما عند كل شاعر أو كاتب من أصالة إلا أن ذلك ليس أمرًا ميسورًا فى كل حالة ؛ فإلى اليوم لا يزال النقاد حيارى فى تحديد ما أتى به كل أديب من جديد ، وإنه وإن تكن هناك عملية تفاعل تزداد عمقًا كلما ازدادت النفس التى تحدث فيها خصبًا إلا أننا لا يمكننا أن نجزم بأصالة ما ينتج عن ذلك التفاعل .

وللناقد جوستاف لانسون كلام بهذا المعنى يتوارد فيه مع القاضى الجرجانى .

قال : نحن نسعى إلى تحديد أصالة الأفراد ، ولكن مهما يكن الأفراد من العظمة فإن دراستنا لا يمكن أن تقتصر عليهم ، لأننا لن نعرفهم

---

(١) الوساطة ص ٢٠٠ .

إذا لم نرد أن نعرف غيرهم ؛ فأمعن الكتاب أصالة إنما هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته ، فلكى نجده ، نجده هو فى نفسه لابد أن نفصل عنه كمية كبيرة من العناصر الغريبة ، يجب أن نعرف ذلك الماضى الممتد فيه وذلك الحاضر الذى تسرب إليه فعندئذ نستطيع أن نستخلص أصالته الحقيقية وأن نقدرها ونحددها ، ومع ذلك فلن نعرفه عند تلك المرحلة إلا معرفة احتمالية[1].

وقد نعجب من هذا التوافق وتوارد الخواطر بين لانسون والقاضى، ولكن عجبًا ينقضى إذا علمنا أن الحقائق العلمية والدقائق الفنية أمور معنوية موطنها الأصلى هو الذهن الإنسانى بصرف النظر عن زمانه أومكانه .

* * *

والآن : مع سرقات المعانى من وجهة نظر القاضى الجرجانى .

تنقسم المعانى من وجهة نظر القاضى إلى ثلاثة أقسام هى :

١ – المعانى المشتركة وهى تلك التى لا ينفرد أحد منها بسهم لا يُساهم عليه ولا يختص بقسم لا ينازع فيه كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطىء بالحجر والحمار، والشجاع الماضى بالسيف والنار ، والصب المستهام بالمخبول فى حيرته والسليم فى سهره والسقيم فى أنينه وتألمه .

(١) النقد المنهجى للدكتور محمد مندور ص ٣٠٩ .

هذه المعانى وأمثالها لا يحكم القاضى فيها بالسرقة ؛ لأنها أمور متقررة فى النفوس ومتصورة للعقول يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم والشاعر والمفحم[1].

٢ – ما أصله من المعانى مخترع مبتدع سبق المتقدم إليه ففاز به ، لكنه تدوول بعده فكثر واستعمل حتى صار كالأول فى الجلاء والاشتهار والاستفاضة على ألسن الشعراء كتشبيه الطلل بالكتاب والبرد ، والفتاة بالغزال فى جيدها وعينيها والمهاة فى حسنها وصفائها ، وكوصف البرق بخطف الأبصار وبسرعة اللمح وأنه كالقبس من النار وكالحريق المتضرم وكمصباح الراهب[2].

٣ – المعنى المختص الذى حازه المتبدىء فملكه وأحياه السابق فاقتطعه لكنه لم يبتذل بالاستعمال بحيث يحمى نفسه عن السرق ، ويدفع عن صاحبه مذمة الأخذ ولهذا كان المعتدى عليه مختلسًا سارقًا والمشارك فيه محتذيًا تابعًا[3].

ومن أمثلة هذا القسم قول عدى بن الرقاع :

وكأنها بين النســـاء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أيقظه النعاس فرنقت فى عينه ســـنةوليس بنائم[4]

(١) الوساطة ص ١٧٩ .
(٢) الوساطة ص ١٨٠ .
(٣) الوساطة ص ١٧٩.
(٤) الوساطة ص ٣١ .

ومن أمثلته كذلك وصف المتنبى للحمى وشعره الفلسفى[1].

* * *

هذا هو تقسيم القاضى للمعانى وتلك هى آراؤه فى سرقتها ، لكنه لا يطلق القول بعدم الأخذ فى القسمين الأول والثانى ، وإنما يتيح للفنية والابتكار فرصة الظهور والعمل بسماحه للشاعر أن يأخذ ما يشاء عمن يشاء من شعراء وغير شعراء ، بشرط أن يكون عنده من الثقافة وواسع العلم ما يجعله يرد إلى ناحية تفكيره أو إلى ناحية وجدانه شيئًا مما أخذ .

ها هو ذا يستدرك على نفسه بعد أن فصل القول فى المعنى المشترك ، وما ثنى به عليه مما كان أصله مخترعًا لكنه تدوول واستفاض فيقول :

« وإنما يصح فى هذا الأخذ إذا أضيفت إليه صنعة لفظ أو وصل بزيادة معنى »[2].

ويسوق لذلك العديد من الأمثلة فيقول :

ولم يزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود والخدود بالورد نثرًا أو نظمًا وتقول فيه الشعراء فتكثر وهو من الباب الذى لا يمكن ادعاء السرقة فيه إلا بتناول زيادة تضم إليه أو معنى يشفع به كقول على بن الجهم :

عشـــية حيـــانى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

(١) الوساطة ص ١١٦ ، ١٧٨ ، وديوان المتنبى بشرح العكبرى ج ٤ ص ١٤٢–١٤٩ .
(٢) الوساطة ص ٣٥٤ .

فإضافة (بعضهن إلى بعض) إن أخذت فمنه تؤخذ وإليه تنسب .

ثم قال أبو سعيد المخزومى :

والورد فيه كأنما أوراقه نزعت ورد مكانهن خدود

فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحدًا ثم أحسست فى نفسك عنده هزة ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها[1].

ومتى تحمل المعنى هذه الزيادة وسعد بها تكونت له فنية خاصة به ، وربما تحول بفعل هذه الفنية إلى شىء آخر مغاير كل المغايرة لأصله الأول ومن هنا صح الحكم بسرقته .

* * *

وإذا ننتقل بالموضوع إلى عبد القاهر فى [أسرار البلاغة]نجده يكاد أن يكون صورة طبق الأصل من القاضى الجرجانى فى الوساطة ،فالاتفاق عنده إما أن يكون فى الغرض ، أو فى وجه الدلالة عليه .

وهو فى الأول لا يُعد سرقة ، أما فى الثانى : فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته ، وكان مستقرًا فى العادات والعقول كالتشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ، وبالبدر فى البهاء ، لم يُعد هو الآخر سرقة ما لم تدخله صنعة ، وإن كان مما ينتهى إليه المرء بنظر وتدبر ويناله بطلب واجتهاد ، فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص

(١) الوساطة ص ١٨٣ .

والسبق والتقدم والأولوية وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، ومن هنا صح الحكم فيه بالسرقة[1].

(٧)

القول بالتخصص فى النقد دعوة دعاها نقاد كثيرون منذ خلف الأحمر إلى ابن الأثير ومن جاء بعده ، ومع هذا فقد ذكرت صاحب الوساطة وأنا أقرأ كلام عبد القاهر فى هذا الشأن ، ذكرته بما لمحته بينهما من تقارب فى المضمون والشكل[2].

(٨)

ونحن لم نقل : إن عبد القاهر قد تأثر أستاذه فيما عرض له من دراسة الصور البديعية كالجناس والطباق وبعض الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة ، ولو أنه ذكر اسمه ونقل عنه وهو يعالج هذه الموضوعات أكثر من مرة .

لم نقل ذلك ولم نره ؛ لأنه قد اختط لنفسه فى هذه المباحث طريقة مبتكرة ؛ ولأنه قد احتفل بها وأطال فيها بينما لم يتناولها القاضى إلا خطفًا ، ولم يقف عندها إلا ليأخذ نفسه ومع ذلك فقد اعتذر عن ذلك وأبان أنه قال ما قاله عرضًا[3] .

---

(١) أسرار البلاغة صفحات ٢٩ ، ٢٩٥ ، ٣٩٣ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٢٢ والوساطة ص ٩٦ .
(٣) الوساطة ص ٤٣ .

ثانيًا – بين الوساطة ودلائل الإعجاز

١ – أول ما نجده فى دلائل الإعجاز دالا على تأثر عبد القاهر بالقاضى هو تأكيده ما قاله فى أسرار البلاغة عن التخصص[١] .

٢ – وثانى ما نجده له هو اقتباسه تعريفه للاستعارة[٢].

٣ – وإذا كان فى أسرار البلاغة قد انتفع بالوساطة فى الحكم أو عدم الحكم بالسرقة ، فإنه فى دلائل الإعجاز قد فسر ما سماه صاحب الوساطة (احتذاء المثال) ، و (احتذاء المثال) قال به الجرجانى مرتين :

مرة وهو يناقش مهلهل بن يموت فى ادعائه بعض السرقات على أبى نواس ، فقد ادعى مهلهل أن قول أبى نواس فى الخمر :

أتت من دونها الأيام حتى كأنها تساقط نور من فتوق سماء

من قول جرير :

يجرى السواك على أغر كأنه برد تحدر من فتوق غمام

يقول القاضى : ولست أرى شبهًا يشتركان فيه إلا إن ادعى **احتذاء المثال فلعله** »[٣].

تلك هى المرة الأولى .

أما المرة الثانية فكانت حين قال : قال البحترى :

---

(١) دلائل الإعجاز صفحات ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، والوساطة ص٩٦ ، ٩٧

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٣٣ والوساطة ص ٣٣ – ٢٠٠ .

(٣) الوساطة ص ٢٠٤ .

وإذا ما تنكرت لى بلاد أو صديق فإننى بالخيار

وهو معنى مبتذل بين المتقدمين والمتأخرين ، وقال ابن المعذل فأحسن وأوجز لكنه اقتصر على البلد :

إذا وطنٌ رابنى فكل بلاد وطن

وقال أبو الطيب « **واحتذى مثال** » البحترى وأجاد وللبحترى الفضل :

إذا صديق نكرت جانبه لم تعينى فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من اختها بدل[1]

هذان هما الموقفان اللذان قال فيهما القاضى باحتذاء المثال .

وننظر ما عند عبد القاهر فيه قال : واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدىء الشاعر فى معنى له وغرض أسلوبًا – والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه –فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجىء به فى شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلاً على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال : قد احتذى على مثاله وذلك مثل أن الفرزدق قال :

أترجو ربيع أن تجىء صغارها بخير وقد أعيا ربيعًا كبارها

احتذاه البعيث فقال :

أترجو كليب أن يجىء حديثها بخير وقد أعيا كليبًا قديمها

(١) الوساطة ص ٣٠١ .

قالوا : إن الفرزدق لما سمع هذا البيت قال :

إذا ما قلت قافيةً شرودًا تنخلها ابن حمراء العجان

ولا يكون الشاعر محتذيًا إلا بما يكون به آخذًا وسارقًا[1].

هكذا قال ، وهو واضح من المثال .

* * *

ونلاحظ أن ثمة اختلافًا بين وجهة نظر كل من القاضى وعبد القاهر فى احتذاء المثال ، فالقاضى يدفع به تهمة السرقة وعبد القاهر يثبتها به .

واحتذاء المثال – حسبما يوحى به اسمه ، ومما مثل له به القاضى ، وكما عرفه عبد القاهر – نوع من التأثر ، بل هو التأثر بعينه ، والتأثر ليس سرقة فكذلك احتذاء المثال وهذا يعنى أنهما كلمتان مترادفتان على معنى واحد هو أن يأخذ الشاعر بمذهب غيره فى التفكير أو فى التعبير .

لكن لم اختلف الناقدان فى تقييمه ، فجعله أحدهما قرار براءة ، وجعله الآخر قرار اتهام ؟ !.

الرأى عندى أن ما مثل به كل منهما هو سبب اختلافهما ، بمعنى أننا لو عرضنا ما مثل به له عبد القاهر على القاضى لقال فيه بالسرقة ، وما مثل به القاضى على عبد القاهر لنفاها عنه.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٦١ .

(٤)

قال عبدالقاهر بالتناسب ، ومثل له بما مثل به القاضى الجرجانى قال :

إن اللفظ لايخفى المعنى ، وإنما يخفيه إخراجه فى صورة غير التى كان عليها .

مثال ذلك أن القاضى أبا الحسن ذكر فيما ذكر فيه تناسب المعانى بيت أبى نواس :

خليت والحسن تأخذه تنتقى منـــه وتنتخب

وبيت عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكمًا عليهم تخير فى الأبوة ما تشاء

وذكر أنهما معًا من بيت بشار :

خلقتُ على ما فىَّ غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا

ويسلم عبد القاهر بوجهة نظر أستاذه قائلاً :

« والأمر فى تناسب هذه الثلاثة ظاهر »[1].

(٥)

أورد عبد القاهر جملة من الشعر الذى أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا فى معنى واحد وهو ينقسم قسمين :

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٩٠ والوساطة ص ١٩٥ - ٢٠٠.

قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلاً ساذجًا وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب.

وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور[1].

ومن ينظر فى كتاب الوساطة يتأكد له أنه كان أحد المصادر القريبة من عبد القاهر وهو يكتب هذه الجملة من الشعر.

(٦)

جعل القاضى الجرجانى الطبع والذكاء من مقومات الشخصية الأدبية مع الثقافة والدربة ، وعن الطبع قال :

« وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب وعظم غنائه فى تحسين الشعر فتصفح شعر جرير وذى الرمة فى القدماء ، والبحترى فى المتأخرين ، وتتبع نسيب متيمى العرب ومتغزلى أهل الحجاز كعمر وكثير وجميل ونصيب وأضرابهم ، وقسهم بمن هو أجود منهم شعرًا ، وأفصح لفظًا وسبكًا ثم انظر واحكم وأنصف ودعنى من قولك :

هل زاد على كذا ؟ وهل قال إلا ما قاله فلان ؟ فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ، وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به[2].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٧٤ – ٣٨٨ .

(٢) الوساطة ص ٢٣ ، ٢٤ .

ولا يكتفى القاضى بهذه الإحالة لكنه يصر على أن يضعنا وجهًا لوجه أمام مقتطفات رائعة من شعر جرير والبحترى لنعرف فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضل ما بين السمح المنقاد والمستكره الصعب .

* * *

والذكاء كالطبع فى لزومه للأديب ، فعملية الخلق الأدبى عملية شاقة تكتنفها الصعوبات من كل جانب ، ولابد لصاحبها من ذكاء حاد أو على الأقل فوق المتوسط ليقهر هذه الصعوبات ويتخلص منها .

وقد أثبت علم النفس الحديث أن متوسط ذكاء العباقرة أعلى من متوسط غيرهم من الناس[1].

والذوق هو القوة التى نقدر بها الأثر الفنى ، وقد رفع القاضى من شأن الذوق وجعله المرجع الأساسى فى تقدير الأدب .

والأذواق التى يعنيها إنما هى أذواق المتخصصين أصحاب القرائح الصافية والطبائع السليمة تلك التى طالت ممارستها للأدب فحذقت نقده وأثبتت عياره وقويت على تمييزه وعرفت خلاصه ؛ فلكل صناعة أهلها الذين يرجع إليهم فى خصائصها ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها[2].

وإنه ليؤكد ذلك بقوله :

« والشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحاجة ، ولا يحلى فى الصدور بالجدال والمقايسة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ويقربه منها

---

(١) انظر فى هذا تجربة ترومان فى كتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » لمحمد خلف الله ص ٣١ .

(٢) الوساطة ص ٩٦ ، ٩٧ .

الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشيء متقنًا محكمًا ولا يكون حلوًا مقبولاً ، ويكون جيدًا وثيقًا وإن لم يكن لطيفًا رشيقًا ، وقد تجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية ممقوتة ، وأخرى دونها مستحلاة مرموقة »[1].

وإذا كان هذا هو تعويل القاضى على الطبع والذكاء فى إنتاج الأدب ، وعلى الذوق فى نقده ، فإن عبد القاهر قد ذهب إلى ذلك كله بقوله فى دلائل الإعجاز :

« إن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علمًا بها حتى يكون متهيئًا لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون له ذوق وقريحة ، وكما لا تقيم الشعر فى نفس من لا ذوق له ، كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التى بها يفهم ؛ لأن أصلك الذى ترده إليه وتعول فى محاجته عليه استشهاد القرائح وسبر النفوس وفليها[2].

* * *

هذا الذى ذكرناه بعض ما لا حظناه من توافق وجهات النظر عند كل من القاضى وعبد القاهر .

وبقى الإحساس الذى يحسه قارىء الوساطة وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، وهو إحساس بالألفة والأنس فى صحبة هذه الكتب الثلاثة

---

(١) الوساطة ص ٩٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٢٠ – ٤٢٢ .

حتى ليظن أنها صادرة عن مؤلف واحد ، فالأسلوب هو الأسلوب ، والروح هى الروح ، والاتجاه هو الاتجاه بل إن بعضًا من الإنعكاسات النفسية للرجلين تقع متقاربة على بعض الأشخاص والأشياء وبخاصة فى المعنويات .

فهما يمقتان الجهل والغرور وادعاء المرء ما لا يحسنه ، وهما متفقان فى إيثار البحترى على أبى تمام .

وفى الورقة الأولى من الوساطة يتحدث القاضى عن العلم حديث المقدر له المؤمن به فى إيجاد أفضل الصلات بين الناس .

والشىء نفسه نجده عند عبد القاهر وهو يستفتح دلائل الإعجاز فلم يكن وهما إذن ما قلناه من أن ثمة تقاربًا بين الرجلين فى الفهم والروح والاتجاه بل لقد ثبت أن عبد القاهر كان يقتفى أثر القاضى الجرجانى ويضع أقدامه على مواقع خطاه .

والحمد لله.